

التوظيف الديني في (كتاب درر السمط في خير السبط)

Religious employment in the book of "Durar Sammat of the

new al sabbt"

زينب حسن سليم

أ.م.د. قصي عدنان الحسيني

كلية الآداب – الجامعة المستنصرية

Zainab Hassan Salim

Assist. Prof. Qusae Adnan

zainab.hassan.salim80@gmail.com

Dr.qusayadnan61@gmail.com

الملخص

يعدّ (الدّين) رافداً مهماً من روافد الشّعْر والأدب، وقد كان في كلّ العصور، ولدى كلّ الأمم مصدراً مهماً من مصادر الإلهام الشّعريّ والنثري، والأمر لم يعد مقتصرّاً على الأدب العربيّ فحسب، بل أنّ الأدب العالميّ حافل بالكثير من الأعمال الأدبيّة، الّتي محورها شخصيّة، أو موضوع ديني، أو الّتي تأثّرت بالتّراث الدّيني، ففي أوروبا كان (الكتاب المقدّس) مرجعاً للشّعراء الأوربيّين، الّذين استمدّوا منه الكثير من الشّخصيات والنّماذج الأدبيّة، وقد فُتّن كثير من الشّعراء بهذه الشّخصيّات الدّينيّة، ومن هؤلاء الشّاعر الإيطاليّ دانتيّ، والألمانيّ جيته، والفرنسيّ فكتور هيجو، إذ كان (الكتاب المقدّس) هو المصدر الأساسيّ الّذي استمدّ منه الأدباء الأوربيّون في أعمالهم الأدبيّة.

وكانت رغبتنا في هذا البحث هو معرفة المستوى الفكري واللغوي والأدبي الذي كان يتمتع به ابن الأبار، وبيان قدرته على توظيف المرجعيّات في أشعاره وأدبه، وقد أصبحت قضية توظيف التراث في الدّراسات الأدبيّة قضية محوريّة، وهي ظاهرة منتشرة في الشّعْر والأدب العربي قديماً وحديثاً، وكان ارتباط الأدباء والشّعراء بالتّراث والإفادة منه، بدافع من عدّة اعتبارات وعوامل منها عوامل فنيّة، وثقافية وسياسيّة واجتماعيّة ونفسيّة وأيضاً قوميّة، فمسألة الارتباط بالتّراث قديمة وممتدّة على مرّ العصور، عرفت بشكل أوضح واشتهرت تحت صيغ مختلفة.

الكلمات الافتتاحية: السبّط، درر السبّط، المتنّاص

Abstract

: (Religion) is an important tributary of poetry and literature, and it has been in all ages, and all nations have an important source of poetic and prose inspiration, and the matter is no longer limited to Arabic literature only, but world literature is full of many literary works whose focus is personality, or a religious topic, or those affected by religious heritage. In Europe (the Bible) was a reference for European poets, who drew from it many literary personalities and models. Victor Hugo, as (the Bible) was the main source from which European writers derived their literary works.

Our desire in this research is to know the intellectual, linguistic and literary level that Ibn Al-Abar enjoyed, and to demonstrate his ability to employ references in his poetry and literature. Writers and poets benefit from heritage

as motivated by several considerations and factors, including artistic, cultural, political, social, psychological and national factors. The issue of linking to heritage is ancient and extends over the ages. It was clearly known and popularized under various formulas.

Al-sabt, book Durar Sammat, Phonatory Key words:

المقدمة

لقد تنوّعت مصادر أبن الأبار التّراثيّة وتعدّدت، ومن أهمّها: الموروث الدّينيّ، والموروث التّاريخيّ، والموروث الأدبيّ، وكتابه (درر السّبط في خبر السّبط) سجل جامع للموروث، وكان أهمّ مصادره هو الموروث الدّينيّ الذي يمثّل حقلاً رئيساً في التّراث، ومصدراً مهماً من مصادر الموروث، نستطيع من خلاله الوصول إلى تفسير معيّن لأفكار الشّعب القديم ومعتقداته وطقوسه، كما أنّ توظيف الموروث التّاريخي ذو أهميّة كبيرة؛ لأنّه يتعلّق بماضي هذه الأُمّة، ودراسته تهدف إلى إيجاد معنى التّواصل بين الماضي والحاضر، وإضفاء روح القداسة على الماضي الجميل الذي نفتخر به إنّ دراسة هذه الجوانب التي أحاطت بابن الأبار، كفيلة بالإجابة عن بعض التّساؤلات العالقة، وجديرة بالكشف عن أهمّ عوامل نبوغه، وأسرار شاعريّته الفدّة التي ألبسته تاج الخلود، ولعلّ المكانة العلميّة الكبيرة التي بلغها، والأشواط الدّراسيّة الموقّعة التي قطعها، والمؤلّفات الكثيرة التي تركها، قادرة على أن تشكّل قرائن وأدلة كافية في إثبات قدرته على الاستفادة من مجمل المرجعيّات، التي تمّ ذكرها وتأكيداها، والتي وردت في متن كتابه (درر السّبط في خبر السّبط) موضوع دراستنا، وقد أسهمت هذه الصّفات التي تمتّع بها ابن الأبار في تكوينه العلميّ مساهمة كبرى، وكان لها أثرها البعيد في نتاجه الشّعريّ والأدبيّ بمختلف جوانبه.

بقي التّراث الذي خلفه الأديب ابن الأبار، على مرّ العصور مادّة خصبة للدّرس والبحث، وظلّ معينه لا ينضب، على الرّغم من الدّراسات المتعدّدة والمختلفة، التي انصبّت حول حياته، إلّا أنّ ذلك لم يشبع فهم الباحثين،

الذين ما فتئوا يتطلعون إلى المزيد من آثار هذا الأديب، عساني أن أضيف ولو لبنة إلى صرح الدراسات السابقة، حيث ترصد الدراسة معالم إبداع ابن الأثير في توظيف المرجعيات من حيث تعدد مصادرها واختلاف منابعها، لقد كان ابن الأثير شعلة من الذكاء والنباهة، الأمر الذي مكّنه من تحصيل العلوم والمعارف المتاحة في عصره في شتى المجالات، فقد فاق الكثير من معاصريه في الأندلس وخارجها، وطبقت شهرته الآفاق.

إنّ كتاب (در السّمط في خبر السّبط) هذا الكنز الثمين والأثر النفيس، هو آية في النثر الفني لم يكن ليحيده في أسلوبه سوى ابن الأثير، الذي جمع فيه غزارة المادّة وروعة الانتقاء وفنّ العرض والتحليل، فهو بعد أن يسترسل في كلّ فصل في موضوعه ينتقي آية قرآنية، أو حديثاً نبوياً شريفاً، أو قولاً للإمام الحسين (عليه السلام)، أو قطعة نثرية أو شعرية صغيرة، من التراث العربي يضعها في سياق الكلام، حيث يذهل القارئ وهو يسترسل في قراءة هذه الفصول، بهذا الخزين اللغوي والأدبي الهائل.

ملامح المرجعيات الدينية في (در السّمط في خبر السّبط)

يحاول هذا المبحث دراسة استدعاء الموروث الديني في النصوص الأدبية، على أساس وظيفي يجسّد التفاعل الخلاق، ولذلك أكّد النقاد والباحثون على تداخل النصوص، وتحدّثوا عن طبيعة ومسار التأثير والتأثير ومساره؛ لكون المنطق العام لهذا التداخل عدم وجود نصّ، إلّا واعتمد فيه مبدعه على سابقة من وجوه مختلفة، تؤكد تناسل النصوص الأدبية، ومن هذا المنطلق يمثل الموروث الديني حقلاً رئيساً ومنطلقاً مهماً لهذا التفاعل، وهذا يدلّ على أنّ هذه القضية شاعت بين الشعراء والأدباء على مرّ العصور، وكان اهتمام النقاد لهذه الظاهرة يعود إلى أنّهم طرحوا من خلالها مسألة التطوّر العام، الذي عرفه الشعر والأدب العربيّ في مستوى مضامينه.

يعد الموروث الدينيّ العربيّ مصدراً أساسياً من المصادر التي عكف عليها الشعراء والأدباء والكتّاب العرب، حيث عبّروا من خلالها عن تجاربهم الخاصة، وعليه فإنّ ابن الأثير الأندلسي لم يكن بمنأى عن هذا التأثير، فقد

انطلق من خزينه المعرفي المعتمد على أساس فاعلية التواصل مع ذاكرة المتلقي، فهو أمام ذاكرة غنية بهذا الموروث، ومجريات أحداثه وأشخاصه ورموزه، وإحاطة الشاعر بثقافة القارئ، ومعرفته أبعاد المرجعيات الدينية والتراثية، وتوظيفه في العمل الإبداعي بشكل واقعي وعصري، لا تخلو من الموضوعية، بحيث يجعله يتذوق شيئاً جديداً في العمل الأدبي.

تُعدّ المرجعيات الدينية ذات أهمية بالغة في حياة الشعراء، لما يحمله الدين من تأثير واضح وبارز في طبيعة النفس الإنسانية على مرّ العصور، فالدين هو نشاطٌ روحي يمارسه الإنسان بلغة الجسد، أو لغة اللسان يراد به إدخال السكينة في قلوب المتلقين، فنزعة الدين كامن في أعماق النفس البشرية، وربما مصوغ ذلك تدين الإنسان بطبعه؛ لأنّ الإنسان يولد مفطوراً على التدين، والاعتقاد فيما يفوق قدرته الإدراكية (محمود، ٢٠١٩، صفحة ٢٤)، لذا فتوظيف الشاعر للمرجعيات الدينية في نصوصه، يراد منه إضافة تمنح النصّ القوة والتأثير، الأمر الذي لحظناه في نصوص ابن الأبار، ومن المرجعيات الدينية التي تناولها في درر السمط هي:

أولاً- القرآن الكريم

يُعدّ القرآن الكريم من أهمّ مصادر اللغة العربية وآدابها، وهو بأسلوبه ومعانيه وسحر بيانه، يملك على الناس أفئدتهم ويستحوذ على عقولهم، فيحارون في مكمن إعجازه، ويملؤهم العجب لما يجدونه من عظيم تأثيره فيهم، والقرآن الكريم كان ولا يزال المثال الأعلى للأسلوب العربي الفصيح، كما أنّه المنبع الأول للثقافة الإسلامية، فهو يحتلّ مكانة مقدّسة، ومنزلة سامية في قلوب المسلمين ونفوسهم، لما يتضمّن من أسلوب رائع، ومعان سامية، وحكمة بالغة، وبيان إلهي.

يمثّل التأثير بالقرآن الكريم ((أول مظهر من مظاهر التأثير بالمضمون الديني الإسلامي، إذ يتّضح أثره في الأعمال الأدبية، سواء باستلهاهم بعض معانيه، أو باقتباس بعض أفكاره، أو تضمين بعض نصوصه، على صعيد اللغة أو الأسلوب أو الصورة)) (الخفاجي والعوادي، ٢٠١٤، صفحة ١٣٠)، فلم يختلف أثر القرآن الكريم في المجتمع

الأندلسي عن المجتمعات العربيّة الأخرى، فقد ظهر ذلك الأثر في حياتهم الثقافيّة، بحيث يمكن أن نعدّه أساساً ومقوّمات رئيساً من مقوّمات الحياة العلميّة في الأندلس.

يُعدّ القرآن الكريم ((مصدراً من مصادر اللّغة الشّعريّة، التي زخر بها الشّعور والنثر في مختلف العصور، والشاعر حين يقتبس من آيات القرآن الكريم، فإنّه يحاول بشكل أو بآخر أن يزيد أسلوبه قوّة وحصانة وجمالاً)) (الدخيلي، ٢٠١١، صفحة ٨٥). وإنّ شيوع ألفاظ القرآن ومعانيه وآياته في نصوص ابن الأبار، له دلالة واضحة على تشرب الدّين الإسلاميّ في أفكاره وثقافته، يحركها ليصل بأفكاره إلى قلوب النّاس، لذلك اكتسب الشّعراء والأدباء والخطباء والكتّاب من أساليب القرآن وطرائقه، في التعبير ومناهجه في سوق الآراء وسياسة الحجج، ما جعلهم يحذون حذوه ويتّبعون منهجه.

إنّ الخطاب الشّعريّ المتناصّ مع القرآن الكريم، يكتسب مصداقيّة قويّة عند أسماع المتلقّين، فالشاعر عندما يستدعي النصوص القرآنيّة، إنّما يستدعيها بوصفها جزءاً من البنية الدلاليّة للنّص؛ لأنّها تربطه عضويّاً ودلاليّاً وبنويّاً، ويعدّ هذا تنوعاً جديداً، يؤكّد فيه على أنّ العمليّة ليست مجرد عمليّة اقتباس، وإنّما عمليّة تفجير لطاقات كامنة في النصوص (النعامي، توظيف التراث والشخصيات الجهادية والإسلامية في شعر إبراهيم المقادمة، ٢٠٠٧، صفحة ٥٠)، وسوف أقوم في هذا المبحث بتتبّع علاقة ابن الأبار بموروثه الدينيّ، ومدى تأثيره على إقناع المتلقّي، وجماليّة النّص، فقد اعتمد على توثيق صلة التّراث، واعتماده على موارد هذا الموروث الغنيّة، ممّا أغنى به تجربته النّثريّة الرائعة.

ومن مظاهر الموروث القرآني، وظّف ابن الأبار بعض المفردات القرآنيّة عبر الرّجوع إلى الموروث الدينيّ في مواضع متعدّدة، ففي قوله: ((ومنعوا اليتيم أن يقهر)) (الأندلسي، ١، ١٤٢١هـ، صفحة ٧٦). هو إشارة إلى قوله تعالى: (وَيُطْعَمُونَ عَلَىٰ حَبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) (القرآن الكريم، سورة الانسان، آية ٨-٩)، وقد ذكر الفخر الرّازي في تفسيره أنّ هذه الآية مختصة بحقّ علي ابن أبي طالب

(عليه السلام) إذ أنه ((أطعم المسكين واليتيم والأسير، وأمّا الذين يقولون الآية عامّة في حقّ جميع الأبرار، فإنّهم قالوا: إطعام الطّعام كناية عن الإحسان إلى المحتاجين، والمواساة معهم بأيّ وجه كان، وإن لم يكن ذلك بالطّعام بعينه، ووجه ذلك: إنّ أشرف أنواع الإحسان هو الإحسان بالطّعام؛ وذلك لأنّ قوام الأبدان بالطّعام، ولا حياة إلّا به)) (الرازي، ١٩٨١، الصفحات ٢٤٤-٢٤٥)، وأقول أن تسلسل الذين أطعمهم الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وهم المسكين واليتيم والأسير في الآية المباركة معنية بذات علي وأسرته (فاطمة، الحسن، الحسين) (عليهما السلام)، وأمّا مسألة عموميته للإطعام فهذا مفرغ منه في مجال الإحسان وإن وجاهة الإحسان وموقف الإمام علي (عليه السلام) اجتمعتا سوية في الآية القرآنية الشريفة وهو كرم إلهي وتكريم لعلي (عليه السلام)، وأسرته، وقد تنتهي حياة الإنسان من دون الطّعام، لذلك أثر أهل البيت (عليهم السلام) على أنفسهم أن يأكلوا وغيرهم جائع، ((فقد نذر عليّ وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) أن يصوموا ثلاثة أيّام فصاموا، وأعطوا إفطارهم ليلة للمسكين وليلة لليتيم وليلة للأسير، فنزلت فيهم هذه السّورة)) (الشيرازي، ٢٠٠٣، صفحة ٥٩٩).

لقد أراد ابن الأثير أن يبيّن مكانة أهل البيت (عليهم السلام)، ومقامهم، فهم الذين شرّعوا الدّين، وأظهروه ونشروه، لذلك لجأ في علمه الأدبيّ إلى ربط النّصوص القرآنيّة بالمتون الأندلسيّة، التي تضافرت في نسق أدبيّ رائع، لتحقيق الرّصانة والانسجام داخل النّص، وقد استعان بالتّناسّ القرآنيّ في موضع آخر حينما قال: ((أذهب الله عنهم الرّجس)) (الأندلسي، ١٤٢١هـ، صفحة ٧٧)، وهي إشارة إلى قوله تعالى: (وَيُطْعِمُونَ الطّعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً) (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً) (القرآن الكريم، سورة الانسان، آية ٨-٩)، والذين أذهب الله عنهم الرّجس هم ((الخمس الطّيبة محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم الصّلاة والسّلام) كما في متواتر الروايات، ويؤيّد الإتيان بضمير الجمع المذكّر، وحيث أنّ المراد بالرجس الذّنب فكانت الآية دالّة على عصمتهم، ويظهرهم عن المعاصي تطهيراً)) (الشيرازي، ٢٠٠٣، صفحة ٤٣٤).

كثيراً ما يلجأ ابن الأثير إلى المرجعيّات القرآنيّة بل أن انطلاقه الأساسي من النص القرآني لينهل من ينابيعها السخّية، جاعلاً منها أدوات يثري بها تجربته النثريّة، ويمنحها شموخاً وأصاله وأخيلة، فهي تعدّ وسيلة إحياء وتوضيح للمتلقّي، كما أنّه أفاد من القرآن الكريم في بعث الترابط والتّناسب في أجزاء الكلام المنظوم، فأحكمت عباراته، وأجيد سبكه، حتّى أصبح من المتعذّر الاستغناء عن أيّ جزء أو كلمة منه، دون أن يؤدّي ذلك إلى فساد المعنى أو الانتقاص من قيمته البلاغيّة.

إنّ قضية توظيف التّراث القرآني في الدّراسات الأدبيّة يعدّ قضية محوريّة مهمّة تصبّ في جماليّة النّصّ وانسجامه، ومن أمثلتها قوله:

((نمتّه العرّانين من هاشم إلى النّسب الأصرح الأوضح

إلى نبتة فرعها في السّما ومغرسها سرّة الأبطح (الأندلسي ا، ١٤٢١هـ،

الصفحات ٧٨-٧٩)

أولئك السّادة أحيي وأفدي، والشّهادة بحجّهم أوفي وأؤدّي، ومن يكتمها فإنّه آثم قلبه)) (الأندلسي ا، ١٤٢١هـ، الصفحات ٧٨-٧٩)، إنّ من يغوص في هذا النّصّ يجده فيه مرجعيّات دينيّة، كما في "والشّهادة بحجّهم أوفي وأؤدي"، ففيه إشارة قرآنيّة إلى قوله تعالى: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) (القرآن الكريم، سورة الشورى، آية ٢٣)، فالحبّ في قول ابن الأثير يتواءم مع المودّة في قوله تعالى، فضلاً عن السّؤال الذي سئل به النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حال نزول الآية المباركة ((من قرابتك هؤلاء الذين أوجبت علينا مودّتهم؟ فقال: عليّ وفاطمة وأبناهما، فثبت

أن هؤلاء الأربعة هم القربى، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد من التعظيم)) (الرازي، ١٩٨١، صفحة ١٦٧). وهذا ما يبين استخدام ابن الأثير للنصوص القرآنية في كتابه منطلقاً منها في أغلب الأحيان.

إن إحساس الشاعر بمدى غنى التراث وثرائه بالإمكانات الفنية، والمعطيات التي تمنح النصّ طاقات تعبيرية، واستغلال هذه الإمكانيات وتوظيفها، بهدف منح النصّ القدرة على التأثير في المتلقي؛ ذلك لأن المعطيات التراثية تكتسب لونا خاصاً من القداسة في نفوس أبناء الأمة، ونوعاً من اللصوق في وجدانها (زايد، ١٩٩٧، صفحة ١٦)، فالتراث الديني بصورة عامة يُعدّ الامتداد المعرفي والإنساني لكل أديب، وهذا ما بدى جلياً في نصوص ابن الأثير، الذي يريد أن يفتخر بتراثه الديني، وأن يبين عراقته من خلال علاقته بهذا الدين، والانتماء لرموزه من الأنبياء والمرسلين والأئمة والمصلحين.

لقد وظّف ابن الأثير معطياته واستخدمها استخداماً فنياً ودلالياً، كوصفه لسيرة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: ((وكان قبيل المبعث، وبين يدي لم الشعث، يثابر على كل حُسن وحسنة، ويجاور شهراً من كل سنة، يتحرى الحراء بالتعبّد، ويزجي تلك المدّة في التعبّد، وذاك الشهر المقصور على التبرّز، المقدور فيه رفع التضرُّر، فبيناه لا ينام قلبه وإن نامت عيناه، جاءه الملك مبشراً بالنّجح، وقد كان لا يرى رؤيا إلا جاء كفلق الصّبح، فغمره بالكلاءة، وأمره بالقراءة، وكلّما تحبس له غطّه ثم أرسله، وإذا أراد الله بعبد خيراً عسله)) (الأندلسي، ١٤٢١هـ، الصفحات ٨٩-٩٠). أراد ابن الأثير في قوله الأنف توظيف المعنى والإشارة إلى التقارب مع قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (القرآن الكريم، سورة العلق، آية ١-٥)، حيث أشار أكثر المفسرين على أن هذه السورة أول سورة نزلت من القرآن الكريم، وأول ما بُدئ به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الوحي الرؤيا الصالحة الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصّبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان ((يخلو بغار حراء فيتعبّد فيه الليالي، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك، ثم

يرجع إلى خديجة، حتّى جاءه الحقّ وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطّني، حتّى بلغ منّي الجهد حتّى الثالثة، ثمّ قال: اقرأ باسم ربّك الذي خلق)) (البغوي، ١٩٩٢، صفحة ٤٧٧)، إنّ توظيف التّراث الدّينيّ في النّصوص الأدبيّة يعدّ بمثابة ربط الصّلة بين الماضي والحاضر؛ لأنّه يُعدّ وسيلة تسهم في التّعبر عن مشاعر المؤلّفين، ونقل تراث الأجداد الى الأجيال القادمة، من خلال توظيفه في النّصّ الأدبيّ، لتشكل صورة فنّية رائعة تعكس عناصره وتجاربه وأفكاره، في نسق خاصّ يتبنّاه النّصّ بفضاءاته الواسعة.

تغدو الاقتباسات القرآنيّة أكثر التحاماً بكيان النّصّ، وانبثاقاً من عمق تجربة الشّاعر، فالشّاعر عندما يقتبس من القرآن الكريم يريد تقريب الصّورة لمعنى محدّد، ومن هذه التّضمينات قول ابن الأثير: ((سبقت لها من الله الحسنى، فصنعت حسناً وقالت حسناً، ما فتر الوحيّ بعدها، ولا مطلق الحقّ الحيّ وعدها، وعد الله لا يخلف الله وعده)) (الأندلسي ١، ١٤٢١هـ، صفحة ١٠٠). أراد ابن الأثير في قوله الأنف بيان مكانة السيّدة خديجة (رضوان الله تعالى عليها) بقوله "سبقت لها من الله الحسنى"، بمعنى سبقت لها من الله السّعادة بالفوز بالجنّة لتصديقها النّبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ومساندتها له، فهي أوّل القوم إسلاماً، والقول مقتبس من قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) (القرآن الكريم، سورة الانبياء، آية ١٠١)، وهم أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى من الله وأبعد عنهم الفرع الأكبر.

إنّ الغاية التي ينشدها الشّعراء من استخدام التّناسّ القرآني، هي دعم نصوصهم ومنحها القوّة والتأثير في المتلقّي من الأسلوب القرآني الذي يبرز تأثيره وجماليّته، وهذا ما يبيّنه قول ابن الأثير: ((وأبيها، إنّ أمّ أبيها، لا تجد لها شبيهاً، نثرة النّبيّ، وطلّة الوصيّ، وذات الشّرف المستولي على الأمد القصيّ، كلّ ولد الرّسول درج في حياته، وحملت في ما حملت آياته، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)) (الأندلسي ١، ١٤٢١هـ، الصفحات ١٠٤-١٠٥)، دائماً ما يلجأ ابن الأثير إلى إضافة نصّ قرآني، يزيّن به نصّه، وقوله الأنف يبيّن فيه الفضائل الكريمة والمنزلة السّامية لفاطمة الزّهراء (عليها السلام) فهي أمّ أبيها، وزوجة الوصيّ، وأصل الشّجرة المباركة، ثمّ نلاحظه يستقدم النّصّ القرآنيّ بقوله تعالى: (ذَلِكَ

فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (القرآن الكريم، سورة الجمعة، آية ٤)، مشيراً إلى أَنَّ مَنْ اللَّهَ وفضله على مَنْ يشاء من عباده، ومن هذا الفضل تلك الصفات التي أسبغها الله (تبارك وتعالى) على سيدتنا فاطمة (سلام الله عليها)، فهي ((البضعة النبوية الطاهرة العابدة الساجدة الصابرة بنتُ إمام المتقين سيّد ولد آدم رسول الله)) (صلى الله عليه وآله وسلم) (السيوطي، ٢٠١٠، صفحة ٣٢)، فاستلهم التراث وزجّه بمعانٍ جديدة معاصرة، يراد له شاعر موسوعي المعرفة، عميق الفهم والتجربة، حتّى يصل إلى النصّ قلب المتلقّي، فضلاً عن الإحاطة بالتراث إحاطة تامة، الأمر الذي يجعل النصّ أكثر انسجاماً.

إنّ النصوص الإبداعية هي النصوص التي تحتوي بصمات تراثية، لاسيما التراث الديني؛ لأنها تعدّ مكسباً إبداعياً، ولأنّ الكاتب استقاهها من منابع معرفية، بوصف المادة التراثية مادّة ثرية، وهذا ما يبيّنه ابن الأبار في وصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) بقوله: ((بطش في كلّ كفاح بالأقران، وأنسى مواضي الهند وعوالي المُرّان، ولله وثباته يوم بدر وثباته صدرّاً في كلّ قلب، وقلباً في كلّ صدر، فأخاه المختار، وربّك يخلق ما يشاء ويختار، كَفَلَهُ أَبُو طالب كفالة الأبّ، فنزل عليّ منزلة الأخ، هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان)) (الأندلسي، ١٤٢١هـ، صفحة ١١٨)، يوظّف ابن الأبار في قوله الأنف نصّين قرآنيين: الأوّل قوله تعالى: (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) (القرآن الكريم، سورة القصص، آية ٦٨)، جاء بعد وصفه لشجاعة عليّ (عليه السلام)، وكيف كانت وثباته في بدر، ومؤاخاته النّبّي "المختار محمد" (صلى الله عليه وآله وسلم) خيرة الله من خلقه الذي اختاره واصطفاه للنّبوة (البغوي، ١٩٩٢، صفحة ٢١٨)، ثمّ يصف كفالة (سيد البطحاء) أبي طالب للنّبّي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكيف جعله بمنزلة أبناءه، حتّى نزل عليّ منزلة الأخ، ثمّ يورد ابن الأبار النصّ القرآنيّ الثاني من قوله تعالى: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إلّا الْإِحْسَانُ) (القرآن الكريم، سورة الرحمن، آية ٦٠)، بمعنى ((ما جزاء مَنْ أحسن في الدّنيا إلّا أَنْ يُحسّن إليه في الآخرة)) (البغوي، ١٩٩٢، صفحة ٤٥٥)، والإحسان في الآخرة هو الجنّة التي وعدها الله بها المتّقين من عباده، ويتبيّن لنا أنّ ابن الأبار قد وضع بصمته التي ركنت إلى الإبداع، الذي يضيء النصوص الأدبية، والتّعاقب القرآنيّ داخل مفرداتها، وهنا تكمن مهمّة الأديب في

كشف المفردات، التي تتناغم مع النصوص القرآنية، وتوظيفها بما يقرب الصورة للمتلقي.

إن لجوء الشعراء إلى التراث الديني، سببه أن التراث يمنح النصوص أدواتاً غنية، ووسائل فنية مليئة بطاقة إيحائية، قادرة على تجسيد هذه التجربة وترجمتها ونقلها للمتلقي (زايد، ١٩٩٧، صفحة ٧٣)، فقد وظّف ابن الأثير النصّ القرآني ضمن نصوصه، بطريقة غير متكلفة قريبة إلى نفس المتلقي، كقوله: ((باء عمر بن سعد بالخسر العميم، وآب (الأندلسي، ١٤٢١هـ، صفحة ١٤٦) الحرّ بن يزيد بالفوز العظيم، فريق في الجنة وفريق في السّعير)) (الأندلسي، ١٤٢١هـ، صفحة ١٤٦)، دائماً ما نجد أن ابن الأثير يضع مقارنة بين شخصين أو حدثين من خلال مقولاته، وقوله الأنف يقارن فيه بين عمر بن سعد والحرّ بن يزيد الرياحي، وكلاهما كانا من ضمن الأسماء التي شهدت واقعة الطّفّ الأليمة، وكلاهما أيضاً قد ورد اسمهما في مبحث سابق من دراستنا، ما دعانا لإيراد هذا القول مرّة أخرى هو للحديث عن التّضمن القرآني الذي أورده ابن الأثير، فمن المعلوم أن ابن سعد كان قائداً في جيش يزيد ابن معاوية وكذلك الحرّ، لكن ما حصل أن الحرّ قد عاد إلى الله بانضمامه لمعسكر الحسين (عليه السلام)، وفاز فوزاً عظيماً، أمّا ابن سعد فخسر الخسران الكبير، هذه المقارنة ضمّنها ابن الأثير بقوله تعالى: (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) (القرآن الكريم، سورة الشورى، آية ٧)، فقد روي: ((أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج يوماً وفي يده كتابان، فقال لأصحابه: هل تدرون ما فيهما؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: للكتاب الذي في يمينه: هذا كتاب فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم، قد أجمل على آخرهم لا يزداد فيهم ولا ينقص، وقال للكتاب الذي في شماله: هذا كتاب فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم قد أجمل على آخرهم لا يزداد فيهم ولا ينقص، قالوا: ففيم نعمل إذن؟ قال: اعملوا فمن كان من أهل الجنة يُختم له بعمل أهل الجنة، ومن كان من أهل النار يُختم له بعمل أهل النار)) (السمعاني، ١٩٩٧، صفحة ٦٤)، وهذا ما يبيّن أن ابن الأثير يقتبس من القرآن الكريم ليعطي لنصوصه القوّة والرونق، فالأديب لا بدّ له من العودة إلى التراث، يستند عليه ليبني النصّ على دعائم قويّة، لما في التراث من أصالة وجدة وعراقة، الأمر الذي يغني التجربة الأدبية، ويبثّ الرّوح فيها ويجعل قدرتها في التأثير أكبر.

إنَّ التَّنَاصَّ هو تعالق نصوص مع نصوص أخرى، بمعنى الدَّخول بعلاقة مع نصوص أخرى، بكيفيات مختلفة، وجميع هذه النَّصوص هي عبارة عن فسيفساء من نصوص أخرى، أُدمجت فيه بتقنيات مختلفة (مفتاح، ١٩٨٦، صفحة ١٢١)، وهذا ما يبيّنه ابن الأَبَّار بقوله: ((لَعَنَ اللَّهُ ابْنَ سُمَيَّةَ (الأندلسي ا.، ١٤٢١هـ، صفحة ٧٦)، لو كَانَتْ بَيِّنَةٌ وَبَيِّنَةٌ رَحِمَ مَا فَعَلَ هَذَا، كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا، وَمَنْ وَرَائِهِم بَرْزُخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)) (الأندلسي ا.، ١٤٢١هـ، صفحة ١٦٣)، لقد أراد ابن الأَبَّار في قوله الأنف بيان كذب وزيف يزيد ابن معاوية، عندما أطال النَّظر على رأس سيِّد الشَّهداء (عليه السلام)، وأخذ يلقي اللّوم على ابن زياد الذي عبَّر عنه بـابن سُمَيَّةَ (الأندلسي ا.، ١٤٢١هـ، صفحة ١٦٣)، بزعمه أنّه لو كان بينه وبين الحسين (عليه السلام) قرابة لم يقدم على قتله، وكأنّه لم يأمره بقتله، هذا المكر الذي استباح به دم سبط النَّبيِّ الهادي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثمَّ أورد قوله تعالى: (كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزُخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) (القرآن الكريم، سورة المؤمنون، آية ١٠٠-١٠١)، فكلاً تعني ردع عن طلب الرَّجعة واستبعاد لها، وإيّها كلمة، معنى قوله "رب ارجعون"، والكلمة: هو قائلها لا محالة لتسلط الحسرة عليه، وبرزخ حائل بينهم وبين الرَّجعة إلى يوم يبعثون، أي إلى يوم القيامة، وهو إقناط كليّ عن الرَّجوع إلى الدُّنيا، لما علم أنّه لا رجعة يوم البعث إلى الدُّنيا، وإنّما الرَّجوع فيه إلى حياة تكون في الآخرة، فإذا نُفخ في الصُّور لا تنفعهم أنسابهم، وليفرّ المرء من أمّه وأبيه من فرط الدّهشة، ولا يسأل بعضهم عن بعض لانشغالهم بأنفسهم (الأندلسي ا.، ١٤٢١هـ، صفحة ١٦٣).

إنَّ التَّنَاصَّ المائز مع الآيتين الكريمتين الأنفيّين حبكة وإطلاع ابن الأَبَّار على تفاصيل واقعة الطّفّ، وتوظيفه المناسب "فالتَّنَاصَّ ليس مجرد اقتناص ساذج لألفاظ سابقة، أو لواصق مقتبسات تجميلية تزين النَّصَّ، بل إنّهُ عملية اختراق مقصودة للبنىّة اللّغويّة القارة في الدّهْن، في شكل إشارات دلاليّة، لخلق فضاء مضيء متداخل؛ وذلك لأنَّ الحضور الدّهني المشترك بين إشارات النَّصّ التي يدركها المتلقّي، بعد أن يستدعيها المبدع هو الذي يقيّم العلاقات، وينتج الدّلالات، ويجعل النَّصَّ بنية مفتوحة على الماضي، وقارة في الحاضر، وتتحرك نحو المستقبل

(النعامي، ٢٠٠٧، صفحة ٥٠)، وهذا ما بدى جلياً في توظيف ابن الأثير للآيات القرآنية.

ثانياً- الحديث النبوي الشريف

شكّلت السُّنة النبوية المتمثلة بالحديث النبوي الشريف مصدراً من مصادر تشكيل الفكر العربي، وخلق منظومته القيّمة، فالحديث الشريف يعدُّ مستودعاً لغوياً بالغ الأهميّة، يتزوّد منه الأديب تعابير وحكماً شتى، وحسبي أن أذكر ما نقله الجاحظ (ت٢٥٥هـ) عن يونس بن حبيب (ت١٨٢هـ) قوله: ((ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامه)) (الجاحظ، ١٩٩٨، الصفحات ١٧-١٨).

إنّ الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو حديثٌ عن خاتم الرّسل وذروة الصّلاح، الذي وصل السّماء بالأرض، والدّنيا بالآخرة، فلا ينكر أحد على أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان أفصح العرب لساناً، وقد روي أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: ((أوتيت جوامع الكلم)) (حسين، ٢٠١٢، صفحة ٦)، إنّ حديث النّبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) مثلاً يُحتذى ونبراس يُقتدى، وبه تحيا القلوب، وباقتفاء آثاره تحصل السعادة، ((وما من شكّ أنّ الحديث النبويّ من أشرف العلوم الإسلاميّة قدراً، وأحسنها ذكراً وأكملها نفعاً وأعظمها أجراً، وأتته أحد أقطاب الإسلام التي يدور عليها، ومعاقده التي أضيف إليها)) (ابن الأثير، ١٤٢١هـ، صفحة ٩)، فلا ريب في أنّ النّبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) كان أفصح العرب، وقد أوتي جوامع الكلم، والمطالع لكتب شروح الحديث، يظهر له بوضوح من خلال ما يستخرجه الشّراح من كنوز بلاغته، ودرر فصاحته، على ما آتاه الله من فصاحة المنطق وبلاغة البيان.

تعدّ كتب البلاغة بأقسامها المختلفة البديع، والبيان، والمعاني مصادر غنيّة بالحديث الشريف، فلا يكاد يخلو باب من أبوابها من التّمثيل بحديث شريف أو الاستشهاد به، وكذا يفعل المصنّفون في الأدب، فإنّهم يذكرون في الباب

ما ورد فيه من الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة، ثم يُتبعون ذلك بذكر الأشعار والأقوال في الباب، على أنه يقع في كلام الأدباء كثير مما لا يثبت من الحديث بسبب عدم تضلعهم من هذا العلم الشريف.

إنّ الحديث النبوي الشريف هو ما أُضيف إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) من قول أو فعل أو تقرير، ومسألة أن يُضمّن الشاعر منثوره أو منظومه شيئاً من الحديث، مسألة يجب أن يراعى فيها الدقّة؛ ذلك لأنّ الحديث النبويّ نصٌّ لا يقبل المقارنة مع نصوص أخرى، إطلاقاً للقدسيّة التي يكتسبها الحديث النبويّ من شخص الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)، لذا يتوجّب على الشاعر أن يُضمّن على وجه لا يشعر بأنّه منه (حسين، ٢٠١٢، صفحة ٦)، الأمر الذي يبيّن التّضمين السليم للحديث النبويّ الشريف في النصوص الأدبيّة من عدمه.

لقد أخذت الأحاديث النبويّة دلالات متنوّعة في قصائد الشعراء، نظراً لما تتمتع به شخصيّة المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) من رمزيّة شاملة للإنسان العربي الأصيل، حتّى أصبح توظيف أحاديث النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) في النتّاجات الأدبيّة شائعاً، فضلاً عن الإضافة الكبيرة في المعنى الذي يضيفها الحديث النبويّ الشريف على النصوص الأدبيّة (زايد، ١٩٩٧، صفحة ٧٨)، وهذا ما تبيّنه نصوص ابن الأثير في درر السّمط.

يزخر كتاب درر السّمط بكثير من المفاهيم التي استقاها من الأحاديث النبويّة الشريفة، فالكتاب سُخر لبيان مظلوميّة أهل بيت النبيّ الكرام (عليهم الصلاة والسلام)، فقد وظّف ابن الأثير الأحاديث المباركة بما يتواءم والحوادث التي يذكرها، ومنها في وصف مكانة أهل البيت (عليهما السلام) بقوله: ((أذهب الله عنهم الرجس، وشرف بخلقهم الجنس، فإنّ تميّزوا فبشريعتهم البيضاء، أو تحيّزوا فلعشيرتهم الحمراء، من كلّ يعسوب كتيبة، منسوب لنجيب ونجيبه، نجارة الكرم ودائرة الحرم)) (الطريحي، ١٩٩٢، الصفحات ٧٧-٧٨)، تناول ابن الأثير في قوله الأنف قضية العصمة والطّهارة والرّفعة والمجد والشّرف، وبيان مقام أهل بيت النّبوة (عليهما السلام)، وكيف أنّ الله (تبارك وتعالى) أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، من خلال الإشارة إلى حديث النبيّ محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الشريعة النقيّة التي جاء بها،

الحديث الذي يرويه الإمام أحمد ابن حنبل في مسنده، بقوله:

((أَنَّ النَّبِيَّ أَتَى قَوْمَهُ وَقَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ يُوَالِيَنِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ قَالَ وَعَلِيٌّ مَعَهُ جَالِسٌ فَأَبَوْا، فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا وَأَوَالِيكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَقَالَ: أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) ثَوْبَهُ فَوَضَعَهُ عَلَى عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَحَسَنَ وَحُسَيْنَ (عليهما السلام)، فَقَالَ: إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)) (الساعاتي والبحيري، د.ت، الصفحات ١١٨-١١٩)، وهذا ما يبيّن كرامة وقدر أهل البيت (عليهما السلام) عند النَّبِيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم).

يُعدّ توظيف الحديث النَّبَوِيِّ الشَّرِيف علامة مميّزة لدى ابن الأَبَر، هذا التّوظيف الذي ينطلق من حقيقة مفادها؛ أَنَّ الحديث النَّبَوِيَّ الشَّرِيف يعدُّ ذاكرة حيّة في نفوس المسلمين، توقظ فيهم قيم الدّين الإسلامي الحنيف، كونها صادرة من الهادي البشير (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما وتلهم الشعراء من خلال رصانة المعنى، وقداسة القول وكرامة القائل، فيظهر الإبداع في توظيف يحافظ على الماضي، ويوقظ الحاضر من خلال صياغة للأدب بروح جديدة.

إنَّ إيمان ابن الأَبَر بقضيّة أهل البيت (عليهما السلام) وموالاته لهم، ساعد على نشر مناقبهم وبيان مظلوميّتهم في بيئة الأندلس، فالشّاعر ابن بيئته يبرز همومهم ويعالج مشاكلهم، من خلال الشّعْر تلك الرّسالة الإنسانيّة المتجدّدة، فقد سعى جاهداً في درر السّمط إلى الاستعانة بالمرجعيّات القرآنيّة والنّبويّة لربط نصوصه بالموروث الدّيني، ما يبيّن الهدف الأساس الذي يركّز عليه الكتاب، وهو إظهار مدى مظلوميّة أهل البيت (عليهما السلام) وإحياء أمرهم، وهذا ما يبيّنه قوله: ((خَلَدْتُ بَنْتَ خُوَيْلِدٍ لِيُزَكِّيَ عَقِبَهَا مِنَ الْحَاشِرِ الْعَاقِبِ، وَيَسْمُوَ مَرْقُومًا عَلَى النَّجْمِ الثَّاقِبِ، لَمْ تَخَدْ بِمِثْلِهَا الْمَهَارِي، وَلَمْ يَلِدْ لَهُ غَيْرُهَا مِنَ الْمَهَارِي (الأندلسي ١، ١٤٢١هـ، صفحة ٨٨)، أمت من بعولتها قبله، لتصل السّعادة بحبلها حبله، ملاك العمل خواتمه، ربّ ربّات حجالٍ، أنفذ من فحول الرّجال)) (الأندلسي ١، ١٤٢١هـ، الصفحات ٨٨-٨٩)، يتناول ابن الأَبَر في نصّه الأنف مناقب سيّدتنا أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد (عليها السلام) وسموها وعلوّ قدرها من بين نساء النَّبِيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، فمكانتها عند النَّبِيِّ عظيمة، وهذا ما يبيّنه بمفتتح نصّه بقوله "خَلَدْتُ"،

فهي أول من صدّقت بالنبي من الوهلة الأولى، وثباتها في الأمور، وهو ما يدلّ على قوّة يقينها ووفور عقلها وصحة عزمها، يقول عمّار بن ياسر (رضوان الله تعالى عليه): ((أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: لقد فُضِّلَت خديجة على نساء أُمّتي كما فُضِّلَت مريم على نساء العالمين)) (الشافعي، ١٩٩٣، صفحة ٢٣٠)، وهذا ما يبيّن المكانة الكبيرة لسيدتنا خديجة (رضوان الله تعالى عليها)، إنّ تضمين ابن الأثير لأحاديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وزجّها في علاقة تناصّ مع نصوصه يبيّن اطلاعه الواسع على الحديث النبوي الشريف، وقضايا أهل البيت (عليهما السلام) من جانب، وقدرته وضلوعه بفنّه من جانب آخر، وهذا ما يبيّن قدرته الأدبيّة وإبداعه.

إنّ فضائل ومناقب أهل البيت (عليهما السلام) كثيرة، الأمر الذي جعل منها الملمح الأساس الذي يشكّل هويّة درر السّمط الثّقافيّة، فضلاً عن مراعاة ابن الأثير لتناول هذه الفضائل بحرفيّة وفق تسلسل دقيق للأحداث، وهذا ما يبيّنه قوله في مكانة السيّدة خديجة وابنتها فاطمة الزّهراء (عليهما السلام): ((مكثت للرّسالة مواسية وآسية، فثلثت في بحبوحة الجنّة مريم وآسية، ثمّ ربّعت البتول فبرعت، نطقت بذلك الآثار وصدعت، خير نساء العالمين أربع)) (الأندلسي، ١٤٢١هـ، الصفحات ١٠٢-١٠٣).

إنّ ثقافة ابن الأثير الدّينيّة تجلّت في نصوص درر السّمط بشكل واضح، من خلال التّأثر بالحديث النبوي الشريف، وكأنّه يجعل منه منطلقاً لما يتناوله، حيث بدت دلالات التّأثر الدّيني واضحة في نصّه الأنف، فالنّصّ فيه اقتباس من قول المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) ((حسبك من نساء العالمين بأربع: مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون وفاطمة ابنة محمّد، وخديجة ابنة خويلد)) (بن حنبل، ١٩٨٣، صفحة ٨٥٠)، لقد أراد ابن الأثير بيان تلك المكانة السّامية للسيّدة خديجة والسيّدة الزّهراء (عليهما السلام)، مستعيناً بالحديث النبوي الشريف، جاعلاً منه شاهداً على المواقف المشرّفة في مساندة الرّسالة والنّبوة للسيّدة خديجة (عليهما السلام)، وكذلك مكانة ريحانة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) السيّدة الزّهراء (عليهما السلام)، وجعلهما مع تلك المكانة السّامية للسيّدة مريم ابنة عمران، والسيّدة آسية امرأة

فرعون، في توظيف يبين هذه المكانة السامية من خلال تضمين الحديث النبوي الشريف.

إن ثقافة ابن الأثير الدينية وبيئته التي نشأ فيها، وإطلاعه الواسع على الحديث النبوي الشريف، تجلّى بشكل كبير في درر السمط، الأمر الذي أسهم في إغناء نصوصه، وهذا ما يبيّنه قوله في وصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): ((لكن أمير المؤمنين علياً، رفعه الله مكاناً علياً، أمّ أمّه وأباه، ونادى كلّ من اختدعه واستهواه، ما تلبّس بطاعة أوثان وأصنام، ولا قصّر نفسه وحبس على صلاة وصيام، شنّ على الكفرة غارة الإبادة، وشبّ يالْف عادة العبادة، يعجب ربّك من شاب ليست له صبوة)) (الأندلسي ١، ١٤٢١هـ، الصفحات ١٦-١٧).

دائماً ما ينتقي ابن الأثير ومضة من أحاديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يضمّنها في نصوصه ليمنحها الحيوة والقوة، ونصّه الأنف مشحونٌ بذكر مناقب وفضائل أمير المؤمنين (عليه السلام)، فقد رفعه الله مكاناً علياً، وأمّه وأباه من أصلاب شامخة وأرحام مطهّرة، وإنّه لم يسجد لصنم قطّ، ولم يترك فرض صلاة وصيام، وكان ديدنه العبادة، مستشهداً بقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): ((إنّ الله ليعجب من الشاب ليست له صبوة)) (الارنؤوط وآخرون، ١٩٩٩، صفحة ٦٠٠)، بمعنى أنّ الله (تبارك وتعالى) ليعجب من شاب ليس له ما يفعله الصّبيان، وما يفعله الشّباب من الوقوع في المعاصي أوّل أعمارهم، (والصبوة هي جهلة الفتوة) (آبادي، ٢٠٠٨، صفحة ٩١٣)، بمعنى أنّ هذه المرحلة لم يمرّ بها أمير المؤمنين علي (عليه السلام)؛ لأنّه سخر شبابه في عبادة الله (عزّ وجلّ).

لقد جعل ابن الأثير نتاجه الأدبي الذي سخره للحديث عن السيرة العطرة، وأيام وحوادث النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته (عليهما السلام)، مادّة أغنى بها المكتبة العربية والعالمية، فضلاً عن الباحثين الذين نهلوا من هذه الثروة، وانطلقوا منها في نتاجاتهم الأدبية، كون تراث ابن الأثير وثيقة كانت شاهداً على حقبة زمنية، فضلاً عن التراث الثّر الذي احتوته هذه الكتب.

إنّ الموروث الديني الذي وظّفه ابن الأثير من قرآن كريم وحديث شريف، جعل من نصوص كتابه قيمة أدبية

خالصة؛ ذلك لأنّه ينطلق من الحقائق الإلهيّة في القرآن الكريم، والدلائل النّبويّة من الحديث الشّريف مضمّناً إيّاها بنصوص كتابه، ومن الحقائق المهمّة التي يتناولها هي وصف مقتل أمير المؤمنين علي (عليه السلام) على يد أشقى الأشقياء عبد الرّحمن بن ملجم، الذي ضربه في صلاة الصّبح بسيف كان سمّه بالسمّ، ومات من يومه (بن حنبل، ١٩٨٣، صفحة ٥٥٨)، حيث يصف هذه الحادثة بقوله: ((ثمّ انجلت تلك الطّوارق والنّوائب، وقد شابت منها المفارق والدّوائب، بيد أنّ باندھا سيّد الأوصياء، بيد أشقى الأشقياء)) (الأندلسي ١، ١٤٢١ هـ، صفحة ١٢٦)، لقد أشار ابن الأبار في قوله الآنف إلى حادثة مقتل الإمام علي (عليه السلام) في جملة بيد أشقى الأشقياء، هذه الحقيقة التي ذكرها النّبّي (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: ((يا علي تدري من أشقى الأولين ؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: عاقر النّاقة، قال: تدري من أشقى الآخرين؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: قاتلك)) (بن حنبل، ١٩٨٣، صفحة ٥٦٦)، وهذا ما يبيّن تضمين ابن الأبار للحديث النّبويّ الشّريف، فقد يتناول لمحة بسيطة من الحديث، ويوظّفها ويبني عليها نصّه، وهنا تكمن العمليّة الإبداعية.

لقد استطاع ابن الأبار أن يستمدّ من التّراث الكثير من الحقائق، التي جعل منها شواهد على نصوصه، ومن هذه الحقائق هي بيان مظلوميّة أهل البيت (عليهما السلام)، فالعلاقة بين الشّاعر والتّراث علاقة قائمة على التّبادل، يأخذ من تراثه ويعطيه ما يُغني التجربة ويثرّيها. لقد شكّلت المصادر الدّينيّة جزءاً مهمّاً من ثقافة ابن الأبار، فالألفاظ النّبويّة على وجه الخصوص كانت حاضرة، وهو ما يبيّنه قوله في وصف الدّنيا على لسان حال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) بقوله: ((إنّما حرّم بنو علي الدّنيا، وإنّ تبوّؤوا الدّرة العُليا؛ لأنّ أباهم طلقها ثلاثاً لا رجعة فيها، تصاريّفها ألوان، وتباريحيها بكرّ وعوان، لو كانت الدّنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى الكافر منها جرعة ماء، أغرقت في اللّوم، وهانت على ذوي الحُلوم، فلا حظّ لديها للكرماء، ولا حضّ عليها الحكماء)) (الأندلسي ١، ١٤٢١ هـ، الصفحات ١٨٣-١٨٤).

يتناول ابن الأَبَّار في نصّه الأنف زهد آل النَّبِيِّ المختار (صلى الله عليه وآله وسلم) وتركهم الدُّنيا بقوله "إنّما حرم بنو علي الدُّنيا"، وفيه إشارة إلى ما جاء في الحديث النَّبَوِيِّ الشَّريف: ((عن سهل بن سعد، قال: كنّا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بندي الحُلَيْفة، فإذا هو بشاة ميّنة شائلة برجلها، فقال: أترون هذه هيّنة على صاحبها؟ فو الذي نفسي بيده، للدُّنيا أهون على الله من هذه على صاحبها، ولو كانت الدُّنيا تزُن عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها قطرة أبداً)) (ابن ماجه، ٢٠٠٩، صفحة ٢٣٠)، فلو كان للدُّنيا أدنى قيمة عند الله لما أعطاهم أدنى الأشياء، وهي شربة الماء، وأنّها لا تبلغ مقدار جناح البعوضة عند الله، ولذلك أعطاهم منها ما أعطاهم، ولو كانت للدُّنيا أدنى قيمة لامتنع على الكافر منها أدنى الأشياء، ولو عرف المؤمن هذا المعنى أطمأنت نفسه، ولم تذهب حسرات على هذه الحياة، فليس لها شأن؛ فإنّها إذا تعاضمت في قلب الإنسان تفرّق عليه قلبه، واجتمعت عليه همومه على ما فاتته منها، وعلى ما وجد، وهذا هو المعنى الحقيقي لترك الدُّنيا.

وأهل البيت (عليهم الصّلاة والسّلام) خير مثال لهذا الإيثار، الذي أشار إليه ابن الأَبَّار متناصراً مع الحديث النَّبَوِيِّ الشَّريف، لقد سعى ابن الأَبَّار إلى توظيف مفردات الموروث الديني المتمثلة بالقرآن الكريم والحديث النَّبَوِيِّ الشَّريف، في نصوص كتابه بشكل غاية في الدقّة، من خلال الإشارات الذكيّة للآيات القرآنيّة والأحاديث النَّبويّة، حيث استطاع أن يسجّل التراث الديني ويوظّفه بشكل يتناسق فيه النصّ الأدبي مع الموروث الديني، بطريقة قريبة إلى نفس المتلقّي، شاعت في إطارها إحياءات أغنت النصوص ومنحتها الدقّة والانسجام.

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة تبين لنا عدة نقاط كالتالي أهمها:

١. إنّ الزّمن في (درر السّمط في خبر السّبط)، هو تقنيّة محوريّة تترتّب عليها عناصر التّشويق والإيقاع والاستمرار، ثمّ إنّّه يحدّد في الوقت نفسه دوافع أخرى متحرّكة مثل السّببيّة والتّتابع واختيار الأحداث، ومن هنا تأتي أهمّيّته بوصفه عنصراً بنائياً فاعلاً،

حيث أنه يؤثر في العناصر الأخرى، وينعكس عليها من التقنيات الزمنية المهمة التي اعتمدها ابن الأثير، هي تقنية الحذف (الإضمار أو القطع)، والحذف من أهم الوسائل الاختزالية التي يعتمد عليها الكاتب في سرد الأحداث.

٢. إن المكان في درر السمط لم يعد مجرد مساحة تتحرك فيها الشخصيات، أو تقع فيه الحوادث، وإنما هو المعبر الحقيقي عن مسار الشخصيات، ولذلك جاء منسجماً مع رؤيتها للكون والحياة، وحاملاً لبعض أفكارها.
٣. إن توظيف ابن الأثير للأساليب البلاغية في كتابه لم يصدر إلا من عارف متمرس بفنّه مدركاً لخبايا التاريخ ومطلعاً عليه، حتى ظهر درر السمط بهذه الصورة البلاغية التي شهد لها النقاد، وأشاروا بالبنان.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم
٢. ابن الأثير الأندلسي. (١٤٢١هـ). درر السمط في خبر السبط. تحقيق الدكتور عبد السلام الهراس، والاستاذ سعيد أحمد اعراب، والدكتور عز الدين عمر موسى. مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع.
٣. ابن الأثير. (١٤٢١هـ). النهاية في غريب الحديث والأثر. تحقيق علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي. دار ابن الجوزي.
٤. ابن ماجه. (٢٠٠٩). السنن. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار احياء الكتب العربية.
٥. ابن مسعود البغوي. (١٩٩٢). معالم التنزيل. حقق: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش. دار ابن حزم.
٦. أبي المظفر السمعاني. (١٩٩٧). تفسير القرآن. تحقيق ياسر بن إبراهيم أبو تيميم - غنيم بن عباس أبو بلال. دار الوطن للنشر.
٧. أحمد بن حنبل. (١٩٨٣). فضائل الصحابة. تحقيق وصي الله بن محمد عباس. مكة المكرمة. جامعة أم القرى.

٨. أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي؛ ومحمد عبد الوهاب بحيري. (د.ت). *الفتح الرياني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني*. بيت الأفكار الدولية.
٩. الجاحظ. (١٩٩٨). *البيان والتبيين*. تحقيق حسن السندوبي. مؤسسة هنداوي.
١٠. السيد محمد الحسيني الشيرازي. (٢٠٠٣). *تبين القرآن*. بيروت: دار العلوم.
١١. العلامة جلال الدين السيوطي. (٢٠١٠). *الثغور الباسمة في مناقب سيدتنا فاطمة بنت رسول الله*. دبي. دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري في دبي.
١٢. الفجر الرازي. (١٩٨١). *التفسير الكبير ومفاتيح الغيب*. بيروت. دار إحياء التراث العربي.
١٣. الفيروز آبادي. (٢٠٠٨م). *القاموس المحيط*. راجعه واعتنى به انس محمد الشامي وزكريا جابر احمد. مؤسسة الرسالة.
١٤. ماجد محمد النعامي. (٢٠٠٧). *توظيف التراث والشخصيات الجهادية والإسلامية في شعر إبراهيم المقادمة*. مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الانسانية، م ١٥، ع ١، ص ٤٧ - ٩١.
١٥. حسين علي الدخيلي. (٢٠١١). *دراسات نقدية لظواهر في الشعر العربي*. دار الحامد للنشر والتوزيع.
١٦. رابعة يوسف جبريل حسين. (٢٠١٢). *التضمنين في الحديث النبوي الشريف*. كلية الآداب والعلوم - جامعة الشرق الأوسط. رسالة ماجستير منشورة.
١٧. سراج الدين الشافعي. (١٩٩٣). *تحقيق عبد الله بحر الدين عبد الله، غاية السؤل في خصائص الرسول*. دار البشائر الإسلامية.
١٨. علي أحمد محمود. (٢٠١٩). *الأنساق الثقافية في شعر عدي بن زيد العبادي*. كلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية/ جامعة بغداد - قسم اللغة العربية، رسالة ماجستير منشورة.
١٩. علي عشري زايد. (١٩٩٧). *استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر*. القاهرة. دار الفكر العربي.
٢٠. قيس حمزة الخفاجي؛ وأسماء بدر محمد العوادي. (٢٠١٤). *المرجعيات الدينية للصور الحسية في شعر السجون* / *الأندلسي*. مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، م ٢٢، ع ٦، ص ١٣٠٣ - ١٣١٣.

٢١. ماجد محمد النعامي. (٢٠٠٧). *توظيف التراث والشخصيات الجهادية والإسلامية في شعر إبراهيم المقادمة*.
٢٢. محمد سعيد الطريحي، *درر السمط في خبر السبط - لأبن الأبار الاندلسي* (٥٩٥-٦٥٨هـ).
٢٣. محمد مفتاح. (١٩٨٦). *تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)*. المركز الثقافي العربي.
٢٤. شعيب الارنؤوط وآخرون. (١٩٩٩). *مسند الإمام أحمد بن حنبل*.